الشخصية في الأدب الموجه للأطفال بالجزائر الطائر الزجاجي- أنموذجا-

بركات فؤاد: طالب دكتوراه

جامعة محمد بوضياف– المسيلة

تعد القصة من أهم الفنون التي تحظى باهتمام الطفل وتستدعي اهتمامه ، فهي في نظر كثير من الباحثين أحب الفنون الأدبية للطفل وأقربها إلى نفسه، ويرجع هؤلاء سبب استحواذ القصة على عقل الطفل واهتمامه إلى وجود كثير من الشخصيات التي تكون في الغالب شبيهة بالطفل ونابعة من واقعه، وكثيرا ما نجد الطفل يقلد ويحاكي تلك الشخصيات ويستمتع بذلك فهذه الأخيرة حاجياته ورغباته وميولاته، وتدفعه إلى إعمال فكره وخياله.

كانت هناك في الجزائر محاولات لتقنين أدب الأطفال في مجال القصة، غير أن هذه المحاولات كانت قليلة ويغلب عليها الطابع الارتجالي، وتأتي المؤسسة الوطنية للكتاب في مقدمة دور النشر في الجزائر والتي حاولت تقنين مايصدر عنها من سلاسل قصصية إلا أنها اتسمت بالعشوائية والارتجال، ومن مظاهر هذا الأخير ودلائله أن يحدد المستوى في قصة واحدة ويهمل في باقي القصص ،كما تضم السلسلة الواحدة قصصا كثيرة تختلف اختلافا كبيرا شكلا ومضمونا ثم بعد ذلك توجه لمرحلة واحدة .

Peut-être que les arts les plus importants qui ont un enfant avec intérêt et nécessitant son attention l'art de l'histoire, ils sont dans les yeux de nombreux chercheurs comme les arts littéraires pour les enfants et les plus proches de lui-même, et à cause de ces raisons pour l'acquisition de l'histoire sur l'esprit de l'enfant et son attention sur l'existence d'un grand nombre de caractères qui sont souvent similaires à l'enfant et découle de la réalité, et nous trouvons souvent les mimiques de l'enfant et simule ces chiffres et avoir du plaisir à faire les derniers besoins et les désirs et les appétits, et vous payez à la réalisation de la pensée et de l'imagination.

Il y avait dans les tentatives de l'Algérie pour réglementer la littérature pour enfants dans le domaine de l'histoire, mais ces tentatives étaient peu nombreuses et surtout pas préparés, la Fondation nationale du livre et à la pointe des maisons d'édition en Algérie, qui ont tenté de légaliser Maisdr eux de chaînes anecdotiques, mais il se caractérise par erratique et l'improvisation, et les manifestations de cette ces derniers sous-répertoires qui détermine le niveau dans une histoire et néglige le reste des histoires, comme par série comprend de nombreuses histoires varient grandement dans la forme et le contenu, puis sont allés à la première étape.

مقدمة :

يعد أدب الأطفال من أهم العوامل التي تساهم في بناء شخصية الطفل وتنمية ملكته الإبداعية و التخييلية وتوسيع نظرته للحياة كما أنه يعد عاملا أساسيا في الحفاظ على هويته من الضياع في زمن العولمة والتقنية ووسائل الإعلام بأشكالها المختلفة وهذا ما دفع بالدولة الجزائرية للاهتمام بالأدب الجزائري منذ ثلاثينيات القرن العشرين على جميع الأصعدة المستويات ،ما نتج عنه إبداعات كثيرة يصعب حصرها،كما تأثر بالثقافتين الغربية والعربية المشرقية، إلا أن التعامل مع هذا الأدب صعب لكون المبدع يتعامل مع عالم الطفولة وما يكتنفه من خصوصية، هذا العالم الذي يتحكم فيه عامل السن والتكوين الذاتي والنفسي والعقلي والمعرفي والاجتماعي، لذا يتداخل فيه المنطقي واللا منطقي، ويقبل فيه المستحيل، وما يصح في عالم الصغار ،قد لا يصح في عالم الكبار .

ومن خلال ما سبق ذكره جاءت هذه المداخلة لتجيب عن عدة تساؤلات من أهما :

-ماذا نعني بأدب الأطفال، وما أهدافه ؟

-ما مفهوم قصة الطفل، ومتى ظهرت في الجزائر؟ فيما تكمن أهميتها ؟

-كيف وظف أحمد دليل الشخصية في عمله الأدبي "الطائر الزجاجي"؟

1 تعريف أدب الأطفال :

تعدد الباحثون في مجال أدب الأطفال و اختلفوا في وضع تعريفهم لهذا النوع من الأدب إلا أنهم يتفقون على أنه نتاج أدبي وفكري موجه للأطفال بالأساس، موضوعه الطفل وهذا ما يؤكده محمد برغيشفي تعريفه لأدب الطفولة حيث يقول :" هو النتاج الأدبي الذي يتلاءم مع الأطفال حسب مستوياتهم وأعمارهم، وقدرتهم على الفهم والتذوق، وفق طبيعة العصر، وبما يتلاءم مع المجتمع الذي يعيشون فيه " [1].فأدب الأطفال إذن –حسب ما ذهب إليه برغيش وجه للأطفال مع مراعاة مستوياتهم الفكرية وقدرات الذهنية ،وحسب طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه ،وذلك نظرا لإسهام الكبير، الذي يوليه هذا الأخير لعالم الطفل والطفولة.

وهذا أيضا بالضبط ما ذهب إليه الدكتور هادي نعمان الهيتي في قوله :"هو مجموعة من الإنتاجات الأدبية المقدمة للأطفال التي تراعي خصائصهم وحاجاتهم ومستويات نموهم، أي أنه في معناه العام يشمل كل ما يقدم للأطفال في طفولتهم من مواد تجسد المعاني الأفكار والمشاعر" [2] .والملاحظ على هذا التعريف الذي قدمه (نعمان الهيتي) أنه لا يخرج عما ذهب إليه برغيش في تعريفه لأدب الأطفال.

أما أحمد زلط فقد فيرى أن أدب الأطفال جنس أدبي متجدد موجه إلى فئة عمرية معينة ،ومرحلة متدرجة من حياة الإنسان لها خصوصياتها النفسية والعقلية، ويسعى هذا الأدب وإشباع مرحلة هامة من مراحله حياته ألا وهي مرحلة الطفولة إذ يقول :"لا جرم –إذا قلنا– أن أدب الأطفال كجنس أدبي متجدد نشأ ليخاطب عقلية وإدراك شريحة عمرية لها حجمها العددي الهائل في صفوف أي مجتمع، فهو أدب مرحلة متجدرة في حياة الكائن البشري لها خصوصيتها وعقليتها وإدراكها وأساليب تثقيفها في ضوء التربية المتكاملة التي تستعين بمجالي الشعر والنثر" [3].يؤكد زلط على الاستعانة بالطرق السليمة في تربية الطفل من بينها الاستفادة من الأدب العربي سواء كان شعرا أم نثرا.

ويرى أحمد نجيب أنّ أدب الطفولة ينقسم إلى مفهومين رئيسيين[4]

–**أدب الطفولة بمعناه العام** :ويُقصد به النتاج العقلي المدون في كتب موجهة للأطفال في مختلف فروع المعرفة مثل :الكتب المدرسية والكتب العلمية المبسطة.

–**أدب الطفولة بمعناه الخاص** :ويُقصد به الكلام الجيد الذي يحدث في نفوس الأطفال متعة فنية سواء أكان شعرا أم نثرا، وسواء أكان شفويا بالكلام أم تحريريا بالكتابة ومثال ذلك :القصصوالمسرحيات والأناشيد.

وأمّا نجيب الكيلاني فنظرته لأدب الطفولة تختلف عن نظرة كثير من الدارسين والباحثين فهو ينظر إليه من منظور إسلامي فيعرّفه بقوله ":هو التعبير الأدبي الجميل، المؤثر الصادق في إيحاءاته ودلالاته، والذي يستلهم قيم الإسلام ومبادئه و عقيدته ويجعل منها أساسا لبناء كيان الطفل عقليا ونفسيا ووجدانيا وسلوكيا وبدنيا "[5]...، وقد ركز نجيب

الكيلاني في هذا التعريف على بعدين :الأول أنّ أدب الأطفال إنتاج أدبي يتسم بالتأثير والصدق والمتعة في الطرح، والثاني متعلق بمضمون الأدب إذ يجب أن يستمد أدب الأطفال مضامينة من قيم الإسلام ومبادئه، فلا يكون منافيا للعقيدة الإسلامية.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن أدب الأطفال تجتمع فيه جملة من عناصر الأدب والتي تشمل اللغة والخيال والمعنى والعاطفة، وهو بهذا يشترك مع الأدب عموما –أدب الكبار– إلا أن أدب الأطفال يتسم بجانب من الخصوصية تفرضها خصوصية هذا الأخير، كي تتناسب مع قدرات الطفل العقلية.

1 أهداف أدب الأطفال : يتفق كثير من الباحثين والدارسين في هذا المجال–أدب الأطفال – أن أهداف هذا الأدب لايمكن حصرها، إلا أنهم يتفقون على خمس محاور أساسية هي:

أ– **الأهداف العقدية أو الدينية:** وتتمثل في جملة من المبادئ القيم التي يكتسبها الطفل من مجتمعه من بين أهمها : حب الله سبحانه وتعالى ومعرفة حدوده، والائتمار بأوامره والاجتناب عن نواهيه، والإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل ...، وغرس هذه التعاليم الدينية في عقل وقلب هذه الفئة أمر بالغ الأهمية، فالكتابة الدينية للأطفال:" تتميز باستحضار أصول ومفاهيم تغذي الطفل من وقت مبكر، كي تؤدي وظيفة محمودة ينشأ عليها الطفل، ويلتزمها إذا كبر[6]".

ب– الأهداف التعليمية: يعد أدب الأطفال– بفضل ما يحتوي من معلومات على اختلافها– قاموسا لغويا ثريا، وقد استمد هذا الثراء بفضل القصص الموجهة لهذه الفئة العمرية، سواء كانت هذه القصص ذات طابع تاريخي، أو ديني، أو كانت تنتمي إلى قصص الخيال العلمي، فهي رافد من روافد الأدب يلعب دورا هاما في بناء شخصية الطفل، وتقويمها، وجعلها أكثر نضجا وقابلية للتطور، وتوسيع معارفه الذاتية لتشمل كل من يحيط به في هذا العالم الفسيح.

ت– الأهداف التربوية: ويشمل هذا الجانب كل السلوكات والمعارف التي يتلقاها الفرد من أسرته ومجتمعه الإسلامي القويم، وغرس مكارم الأخلاق في نفوسهم لبناء شخصية سوية

تساهم مستقبلا في بناء مجتمع حضاري له أسسه ومقوماته "فهذا من شأنه أن يشبع رغبات الطفل وينمي خياله المتحفز إلى الكشف عن أشياء غير التي ألفها ويحقق في نفسه ومع غيره ما سمعه عن الصدق فلا يكذب"[7]. إن كل هذه المعارف التي ينبغي للطفل اكتسابها، تلعب دورا بارزا في بناء جيل سوي يحمل من المقومات ما يساعده على بناء حضارة بأكملها.

ث- الأهداف الترفيهية: يعد الجانب الترفيهي من أهم الجانب التي من الواجب توفرها في أدب الأطفال، لما يعتريه من دعابة وتسلية وفكاهة تتناسب وطبيعة هذه الفئة، إذ لا ضير أن يصبغ الأديب المتخصص في أدب الأطفال إبداعاته بصبغة فكاهية دون المساس بمضمونها المتوخى إيصاله إلى عقل القارئ الصغير وقلبه.

ح- الأهداف الخاصة بالجانب اللغوي: تعد اللغة الوسيلة التي يعبر بها الفرد عن مختلجاته وأفكاره، وبفضلها يتصل بمحيطه الخارجي، والطفل باعتباره فردا يتأثر ويؤثر في غيره، فهو مطالب باكتساب هذه اللغة، ونظرا للخاصية التي تميز أدب الأطفال، وجب على من يتعامل معهم أن يخاطبهم بلغة بسيطة يفهمها و يوظفها في يومياته " فاللفظة الجديدة تعني اكتشافا جديدا للطفل، وتزيل الغموض عن جانب ما من جوانب حياته، وتجعله أقدر على الفهم وعلى التعبير"[8]. إن الألفاظ التي يكتسبها الطفل من خلال القصص التي يتلقاها في إطار ما يسمى أدب الأطفال، تعد مادة أولية يثري بها معجمه اللغوي فتصبح لبنة يستعملها في نسج أفكاره كلما أراد ذلك.

إن أهم شيء تجدر الإشارة إليه هو أن أهداف أدب الأطفال لا يمكن حصرها في الأهداف المذكورة سلفا، إنما قد تزيد وتنقص على اعتبار أنها أمور مجردة قد يصيب المرء في حصرها وقد يخطئ، لذا لا يمكننا البت في أمرها وتبقى مجرد اجتهاد بسيطة لأهل الاختصاص.

-**مفهوم القصة:** القصة بشكلها العام فنّ أدبي ضارب بجذوره في أعماق التاريخ الإنساني، تعتمد في تركيبها على مجموعة من الأحداث المتسلسلة والمترابطة فيما بينها تجري بين شخصيات محددة في زمان ومكان معينين، وتتسم بالتشويق ولإثارة، سعيا منها إلى غرس المبادئ والقيم بأسلوب فني رفيع المستوى، وفي هذا الصد يقول محمد ناجم:" القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض .ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثّر والتأثير(...) والقصة حوادث يخترعها الخيال، وهي بهذا لا تعرض لنا الواقع،كما تعرضه كتب التاريخ والسير، وإنمّا تبسط أمامنا صورة مموهة منه"[9]،يعد الخيال في القصة أهم عواملها فهو يتيح للكاتب أن يعير عن أفكاره ، يتضح لنا من خلال هذا التعريف أن القصة هي مجموع الوقائع والأحداث والتجارب الإنسانية في شتى مجالات الحياة والتي يستنبطها الكاتب من مجتمعه ويصبها في قالب قصصي موظفا بلغة تصويرية مؤثرة. ويتحكم فيها كيف يشاء،

القصة في أدب الأطفال: تعد القصة من أهم الأجناس الأدبية في أدب الأطفال، تبرز أهمها في قدرتها على التأثير في الطفل وذلك بفضل ما تمتلكه الأخيرة من خصائص ومميزاتها تنفرد بها عن غيرها، فالأسلوب القصصي بما فيه من إثارة وتشويق وخيال يجذب انتباه الطفل ويؤثر فيه أيما تأثير، وهي بذا سلاح ذو حدين إذا استثمرها الكاتب لغرس القيم النبيلة، والأخلاق الفاضلة، و الإسوة الحسنة فقد مهد لجيل بأكمله يحمل من الأخلاق الفاضلة، والأدب الرفيع ما يجعل منه عاملا أساسا في بناء الحضارة وتشييدها، فالطفل يتمتع بذكاء لا يُستهان به ويستطيع ببراعة التمييز بين ما هو جدّي و مفيد، وبين ما هو سخيف وتافه. " الطفل قارئ جاد للقصص، ومستمع ذواقة لها، وناقد حصيف لها"[10]، ومن خلال التعريف يتبين بنا أن الطفل ناقد صغير يمكنه غربلة العمل الفني الموجه إليه، جيده من رديئه، وجديته من عدمها مع بعض التحفظ فيما يتعلق بعامل السن والثقافة .

ظهور القصة الموجه للأطفال في الجزائر:

إنّ القصص الموجهة للأطفال في الجزائر لم تظهرإلاّ مع مطلع السبعينات، وقبل ذلك كانت منعدمة، فالأوضاع العامة التي كانت سائدة في ذلك الوقت أدت إلى تأخر ظهور الأدب عامة والقصة خاصة و بشكل عام سواء الموجهة للكبار أو الموجهة للصغار يقول عبد الله الركيبي ":تأخر ظهور القصة لأسباب كثيرة ومختلفة في مقدمتها الاستعمار الذي وضع الثقافة القومية في وضع شلّ فاعليتها وحركتها مما نتج عنه تأخر الأدب الجزائري عامة ولاسيما أحدث فنونه وهي القصة "[11] ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بلادنا ألقى بظلاله على الوضع الفني و الإبداعي، وأثر فيه أيما تأثير.

ومع بداية السبعينات من القرن الماضي، أخذت الكتابة القصصية للأطفال في التقدم والازدهار، فالمتصفح لهذا الجنس الأدبي لتلك الفترة يجد أنّ هناك تنوعا في المضامين والموضوعات، وهذا راجع إلى الاختلاف في انتماءات مؤلفي هذه القصص فقد برز كتاب غير جزائريين كانت لهم إسهامات كبيرة في هذا الميدان، وعلى هذا الأساس ميّز العيد جلولي بين خمسة أصناف من القصص هي :[12]

أ -قصص ألفّها كتاب جزائريون على اختلاف مستوياتهم الفكرية والأدبية أمثال :محمد دحو، وجيلالي خلاص.

ب -قصص ألّفها كتّاب ليسوا بجزائريين ولكنّهم أقاموا في الجزائر مدة طويلة كتبوا ونشروا خلالها قصصا للأطفال، وأمثال هؤلاء :محمد علي الرديني، وخالد أبو جندي.

ت قصص ألّفها كتّاب غير جزائريين في الأصل، ولكنّهم يحملون الجنسية الجزائرية ومنهم : خضر بدور، عزة عجان، عبد الوهاب حقي، وحسن رمضان فحلة.

ث قصص لغير الجزائريين، نشرت في الجزائر من طرف دور نشر جزائرية، ومن هؤلاء الكتّاب:أحمد بهجت، وأحمد مختار البرزة.

ج -قصص مجهولة المؤلف أو مجهولة الناشر، أو مجهولة الاثنين معا[13].

إن من أهم ما تجدر الإشارة إليه أدب الطفولة في بلادنا هو أن دورا النشر لعبت دورا لا يستهان به في ميلاد هذا النوع من الفنون في الجزائر، وفي مقدمة دور النشر نجد المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع لما قامت به من جهود جبارة حيث اهتمت بهذا الأدب وأفردت له قسما خاصا أطلقت عليه اسم "قسم منشورات الأطفال" لتفتح بعد ذلك الباب على مصراعيه أمام دور النشر الاخرى لتنسج على منوالها هي الأخرى وتقدم جهودها في هذا المجال.

الشخصية في أدب الطفل:

أ-مفهوم الشخصية: تعدد الباحثون واختلفوا في ضبط مفهوم الشخصية سواء كان ذلك من حيث المصطلح، أو من حيث الدور الذي تلعبها الشخصية من خلال وظيفتها "فمن حيث المصطلح نجد أن الدارسين ما زالو يمارسون هذا الخلط، فمرة يطلق عليها الشخص ويجمعونها في شخوص ومرة أشخاص، ومرة شخصية، وكان هذا المزج واضحا من خلال عدم التفريق بين الكائنات الآدمية أي الأشخاص الموجودين في الواقع الحياتي المجسد أي les personnes وبين الشخصيات les personnages التي تمثل أدوارا معينة في المسرح أو الرواية أي الكائنات الورقية على حد تعبير بارت R Barths والتي يتم استمدادها من وحي وخيال الكاتب و تنهدم مباشرة بعد نهاية القصة"[14].وربما يعود سبب هذا اللبس في صعوبة تحديد مفهوم دقيق للشخصية هو تغير مدلولها حسب طبيعة استعمالها، وقد حاول الدكتور عبد الملك مرتاض وضع مفهوم للشخصية فيقول:"إن الشخصية حركي حي ينهض في العمل السردي بوظيفة الشخص دون أن يكونه، وحينئذ تجمع الشخصية قياسا على الشخصيات لا على الشخوص الذي هو جمع الشخص .ويختلف الشخص عن الشخصية بأنّه الإنسان، لا صورته التي تمثلها الشخصية في الأعمال السردية[15]".

إن ما يمكن ملاحظته من خلال التعريفين السابقين هو أن الشخصية مجرد مفهوم تخييلي يستعمله الكاتب ليجسد من خلاله أفكاره ومعتقداته داخل عمله الإبداعي.

شخصيات القصة:

تلعب الشخصية دور هاما بالنسبة للطفل، حيث يتوحد معها ويتمثل كثيراً من قيمها وسلوكاتها ، ولذلك يجب أن تراعى بشكل كبير أبعاد هذه الشخصيات عند اختيار القصة لتقديمها للطفل : ومن بين أهم المعايير التي يمكن ربطها بالشخصية ما يلي:

– أن تكون الشخصيات مألوفة لعالم الطفل بحيث يتعايش معها ، مثل ان تكون من عالم الأسرة ، الحيوانات ، الأقران ، الزهور الطيور ، الأشجار التي تتفاعل في عالم شبه إنساني في علاقاتها بحيث تتكلم وتبكي وتلعب وتفرح ، وتحزن.

– أن يكون عدد شخصيات المشاركة في الحدث قليلاً حيث يستطيع الطفل التركيز.

– أن تكون الشخصيات بعيدة عن المثالية المطلقة ، وان تكون في مستوى الواقع متباينة تقترف الخطأ وتسعى إلى الصواب وتتغير في النهاية إلى الأفضل ، فإذا تم تصوير الشخصيات على أنها تملك شخصيات إيجابية فقط ، فإن الطفل قد يشعر عن طريق المقارنة بأنه سيء ولا يكون راضياً عن نفسه.

– يجب أن تظهر شخصيات القصة النساء والرجال في أدوار مختلفة تعكس قدراتهم على صنع القرارات وحل المشكلات ، وعرض أنواع مختلفة من المشاعر ، العناية بأفراد العائلة والعمل خارج المنزل.

– أن تتيح القصص للطفل التعرف على أنواع العائلات المختلفة مثل (العائلة المكونة من الأم او الأب فقط ، .....الخ)

– يجب أن تكون الصور واقعية وتعكس أشكال الناس الحقيقية ، وتعكس الاختلافات بين الناس مثال : الأشخاص المعاقين الأعمار المختلفة ، الخلفيات الثقافية المختلفة.

– أن تقدم الشخصيات بشكل واقعي ومنافي للعنصرية والتعصب ، وان لا تركز على صنف واحد من الشعوب.

الشخصية في قصة الطائر الزجاجي:

قصة الطائر الزجاجي عمل أدبي موجه للأطفال، وقد خص صاحبها طبقة معينة منهم –اليافعين– "فاراجي" وهو بطل هذه القصّة، أوصافه:(وقف الصبي"فاراجي" ذو الخمسة عشر ربيعا، قبالة المرآة متطلعا إلى هال ة الاحمرار التي طرأت على عينه اليسرى.كان في وسعه أن يرى، رغم لون بشرته الداكن، أثر الكدمة على طرف جبهته، بدت متورمة بحيث لم تعد ملامح وجهه الباذنجاني سوية شعر للحظة أن انعكاس صورته في المرآة لا يقل عنه تعاسة وطفق يتحسس صدره الناضح بألم لم يتسن له تحديد موضعه...)[16].

وقد هرب الطفل" فاراجي" من البلدة بسبب تهميشه، وهذا أثار عاطفته، ليجد نفسه في مغارة مظلمة ؛ هذا المكان الرّاسخ في أذهان الأطفال كفضاء يثير الفضول و الغرابة ويحفزهم على حب الاكتشاف، والاطلاع على مكنونات العالم الخارجي ؛ لكنّه لا يجد فيه لا عفريتا و لا ساحرا مخيفا؛ إنّما وجد عجوزا مسنا على قدر من العلم، اخترع آلة إلكترونية خارقة بإمكانها أن تنقل كما من المعلومات المخزّنة في الحاسوب وشحنها فيى دماغ الإنسان، وذلك عن طريق آلة ذكية تتمثل في خوذة مجهزة ببرنامج معد مسبقا لشحن هذه المعلومات توضع على الرأس، لم تنجح العملية مع الشّيخ –في بادئ الأمر– لأنه ما من متبرع تجرى عليه التجربة، لكنّها سرعان ما نجحت بوجود الطفل فاراجي الذي بدا متحمسا لإجراء هذه التجربة مهما كانت النتيجة التي ستؤول إليها...كانت هذه الفكرة هي محور النصّ الّذي بنيت عليه كلّ الأحداث، و هي فكرة منطقية مستوحاة من الخيال العلمي، و هو أحد الرّكائز الهامّة الّتي يبنى عليها أدب الطّفل، فالكاتب وفّق إلى حدّ بعيد في اختيار الفكرة. وربما ساعده في ذلك عمله، بحكم أن الكاتب أستاذ في الدراسات العليا يمتهن مهنة تدريس الرياضيات " أنا طفل أمقت السّكون و أحبّ الحركة".

الطفل "فاراجي" كان كثير الحركة ولم يهدأ من بداية النّص إلى نهايته، كانت حركته مستمرّة لا تنقطع؛ يتنقّل من مكان إلى آخر دون كلل أو ملل،فنراه في البيت تارة، وفي الحقل أخرى، في المدرسة حينا، وفي المغارة حينا آخر..

و يقوم بأعمال مختلفة تباينت بين الجري، والتسلّق، والشجار مع أقرانه، والمذاكرة مع زملائه، يحاور، يحكي، يبكي...حركية مستمرّة في النصّ، حتّى إذا خلد إلى النّوم بدأت حركته من جديد أثناء أحلامه التي تكون في أغلبها كوابيس هي أقرب إلى الحقيقة من الخيال جراء ماكان يعاني من تعاسة وشقاء، لم يتوقف عن الحركة إلاّ في جملة واحدة " ظلّ فاراجي في حالة غيبوبة تامّة بجناح العناية المركّزة في مستشفى المدينة"...

حركية البطل الدؤوبة و تواتر الأحداث تجعل النصّ أكثر سلاسة و تشويّقا، وأسلوب الكاتب في سرد الأحداث و التّقليل من الوصف و الحوار هو الأسلوب الأكثر ملاءمة للیافعين...كثافة الأحداث و الحركية المستمرّة تجعل النصّ قابلا لتحويله إلى فلم، تمثل أحداثه على خشبة المسرح . "أحبّ الآخرين، و أريد خاصّة أن يحبّني الآخرون" هذا قول اليافعين بناءا على الدّراسات السّيكولوجية..العاطفة كانت حاضرة بقوّة في النصّ، "أريد أن يحبّني الآخرون" كان هذا هاجس البطل " فاراجي "خلال النصّ بأكمله،لم يكن يطلب الشيء الكثير لامالا ولا جاها إنما كان يتمنى أن يكون محبوبا في مجتمعه، بداية مع أقربهم إليه و هي أمّه، أصدقاءه و أساتذته، ثمّ " عيدة" زميلته في المدرسة، والتي أخذت جل اهتمامه، و بحبكة محكمة، استطاع من خلالها الكاتب أن يرافق تلك الحركية الخارجية بحركة عاطفية موازية لها، ممّا أعطى للنصّ بعدا إنسانيا متكاملا .يلعب فيه الحيوان دور الصديق للطّفل .

لكن الميزة التي برزت في العمل جليا هي أن الكاتب لم يوظف الحيوان توظيفا مباشرا في سرده للأحداث، لكن كان حضورها رمزيا من خلال العنوان، و من خلال بعض الكوابيس الّتي انتابته حيث ظهرت أسماك و عصفورة...إلاّ أنّ هذه الرمزية (حسب رأيي المتواضع) تنحى نحو التّجريد أكثر و لا يمكن لليافع أن يستوعبها، وكان على الكاتب مراعات هذه الخصوصية التي تحيط بعالم الأطفال الرّمزية في الطّائر الزّجاجي و الّذي أعطي كجائزة لفراجي، و الّذي تكسّر فيما بعد دلالة على عدم أحقّية هذه الجائزة...الرّمزية

الثّانية في العصفورة الّتي رآها أثناء التّجربة و الّتي ربّما ترمز لزميلته " عيدة..." بعض السّلبيات حسب رأيي:

1- الحبكة في أدب الطّفل يجب أن تكون سهلة مستساغة لدى الطفل، و هذا ما كان في غالبية النصّ، إذ تواتر السّرد حسب كرنولوجيا الأحداث، إلاّ في الفصل الأوّل حيث استعملت تقنية الاسترجاع لسرد أحداث مضت ممّا قد يربك القارئ الطّفل ...

2- الفصل السّابع عشر المعنون "هلاميات "ابتعد كثيرا عن المحسوس و نحى أكثر نحو التّجريد عند إدراج هذه الكائنات الّتي سمّاها الكاتب " مخلوقات هلامية"، أوّلا العبارة صعبة التّصوير عند الطّفل، كيف يمكن لعقله الصغير أن يستوعبها، ثمّ كثرتها في فصل قصير و بتسميات غير عادية: "ذو الرّداء"، " ذو البثور"، " ذو القدمين العظيمتين"، " صاحب الأريكة"...هل يمكن للطّفل أن يتخيّل صورا لها في مخيلته؟

3- "الهروب من البيت" رغم الظّرف القاهر ربّما كان ذا قيمة سلبية بالنّسبة إلى طفل لم يبلغ سن الرشد بعد.

الرّسالة: النصّ كان دعوة لقيم إنسانية نبيلة حاول الكاتب بسطها من ثنايا النص:الأخلاق الفاضلة، المحبّة، التّواضع، الصّدق، الأخوّة و نبذ العنصرية،العمل و المثابرة و عدم التّواكل ...

الأبعاد الاجتماعية في رواية (الطائر الزجاجي)

تنقسم الحكاية في " رواية الطائر الزجاجي" إلى تسعة عشر فصلا، اختارها الكاتب بعناية، ليلخص من خلالها محنة الطفل البريء الملقب بـ"فاراجي" وهي عمل إبداعي يستحق التقدير، حاول الكاتب أن يبسط فيها أفكاره بأسلوبه الخاص، وموقف لا يتبين بدايته من نهايته، ففاراجي صدم بواقع يتسم بالفوضى والخراب الحسي، وحياة الأنانية والسطو على الآخر"كان فراجي قد اعتاد سماع الصبية ينعتونه بالبلادة دون أن تستثيره أي رغبة في الرد عليهم". وما زاد الطينة بلة التميز العنصري الذي كان حاضرا في ثنايا النص من البداية إلى النهاية.

تنطوي علاقة الإنسان بالمكان الذي يقطنه على عدة جوانب وعلى قدر من التعقيد، تجعل من معايشته له عملية تتجاوز قدرته الواعية، لتتوغل في لا شعوره، فهناك أماكن جاذبة تساعده على الاستقرار وأماكن طاردة تلفظه، فالإنسان لا يحتاج فقط مساحة فيزيقية، جغرافية، يعيش فيها ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل عن المكان لتحويله إلى مرآة عاكسة ترى فيها الأنا صورتها، فاختيار المكان وهيئته يمثلان جزءا من بناء الشخصية البشرية، فالذات لا تكتمل داخل حدود ذاتها ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبغ كل ما حولها بصبغتها وتسقط على المكان قيمها الحضارية.

كانت درجة الانهيار الذي أصاب الطفل فاراجي بالغة حولت حياته اليومية إلى جحيم "كان يستمتع قبل دخوله المدرسة بأيام ملؤها اللعب كسائر أترابه. ربما انفرد بميل واضح إلى الصمت، لكنه لم يحبذ العزلة أبدا" . وهذه بداية التحول في شخصية فاراجي التي كانت مليئة بالحيوية والنشاط لتتغير شيئا فشيئا نحو الجمود والانعزال عن المجتمع، ويحيلنا الراوي إلى شيء ربما يكون من الأمور التي ساهمت في تفعيل هذا الشعور في نفس الطفل فاراجي وبثت فيه روح العزوف عن الجماعة فيقول : "كان فاراجي قد اعتاد سماع الصبية ينعتونه بالبلادة دون أن تثيره رغبة في الرد عليهم إذ يكتفي برسم ابتسامة بلهاء على محياه، مع أن صدره كان ينقبض حين يسمع مثل تلك النعوت من أمه "العالية" وهي تزبد وترغي أثناء فورات غضبها الحاد" ، "كان أمرا واقعا أنه لم يعد يذهب إلى المدرسة إلا لماما.كان يجد في الشوارع والحقول ما يسليه أكثر إذ يبدوا له العالم هناك أقل وحشة. لم تكن له لديه أي صداقات عدا صداقته الغريبة بزميل له يدعى «رمضان». مع ذلك فإن معظم أترابه كانوا يعرفونه بفضل الدعابات الرائجة حول بلاهته. لم يكن بعضهم يتوان في اختلاقها وسردها بحضوره أحيانا، دون أن يبدي فاراجي ردة فعل تجاه الأمر، وهو ما يعتبرونه بلادة صرفة "، حتى إن البعض من أقرانه كانوا يلبسونه ثوب البلادة والغباوة المطلقة فيقولون مستهزئين به: "هذا الولد غبي إلى حد مهول!..حتى أنه يمكن لمس غباءه باليد المجردة . "..!

إن تصوير معاناة بطل الرواية فاراجي اقتضى من السارد أن يستثمر سمات حسية لتقريب الدلالة كما جعله في الآن نفسه يجنح نحو المجرد للكشف عن معاناة بطله، ومن هنا يتميز التصوير السردي بتواتر هذه السمات وتراكبها إلى درجة التماهي.

إن ما يلفت نظر قارئ الرواية ذلك المتخيل اللامتناهي الذي يتحول داخل النص إلى نوع من الخطاب التجريدي الذي يحوم في آفاق الخطاب الذهني وتداعيات الفكر في عوالم الخيال المجنح وذلك ما نجده في فصل "الهلاميات" حيث "رأى فاراجي نفسه وكأنه يتجول في عالم ضبابي غريبة أجواءه، تملأه مخلوقات هلامية قبيحة الأشكال، ذات روائح لاذعة تتحرك كلها باتجاه واحد. بدا وكأنها لا تلاحظ وجوده...شرع يشق طريقه بينها، عله يتبين ما تحلق حوله. وصل بعد جهد إلى فسحة واسعة غدت فيها الروائح أكثر نفادا، وقد توسطت بالفسحة أريكة ضخمة، يقتعدها مخلوق فارع القامة، ذميم المنظر، تحمل قسمات وجهه بعضا من ملامح والد عيدة."

يتحول المقطع التصويري إلى طاقة رمزية توحي بظلال معان عدة مكثفة يمكن تأويلها بأوجه عديدة داخل النص، لكنها على الرغم من إمكاناتها على التأويل المتنوع تكشف عن عمق معاناة بطل الرواية وتجسد جوهر إشكاله الوجودي.

وعبر هذا التوتر في بنية السرد بين الحسي والمجرد تتبين طبيعة فاراجي، وتتبين حيوية التصوير الروائي الذي استطاع كشف توزع الرواية بين الواقع الحسي بإكراهاته وتناقضاته وعالم الحلم المجرد بانسجامه وتناغمه. وهذا هو مكمن الداء بالداء بالنسبة لشخصية فاراجي الذي يبدو غريبا في عالم الناس بسلوكه ومواقفه كما يتبدى من خلال الرواية

الهوامش والاحالات

1 : محمد حسين برغيش، أدب الأطفال – أهدافه وسماته–مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1998م، ص46.

2:هادي نعمان العيتي، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 123، 1988م، ص148.

3:أحمد زلط، أدب الطفولة– أصوله ومفاهيمه"رؤية تراثية"–الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،القاهرة، الطبعة 1997،4م، ص25/24.

4: أحمد نجيب :أدب الأطفال علم وفن –دراسات في أدب الطفولة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 1991 /280. 4م، ص279

5:هاجر ظريف،الشخصية في أدب الطفولة بالجزائر أحمد خياط–أنموذجا – مذكرة ماجستير ،إشراف الأستاذ الدكتور حسان راشدي، ،كلية الآداب واللغات، جامعة سطيف2، 2015م، ص

6: مالك إبراهيم الأحمد :كتاب الأمة، نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال، سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر،العدد 59 ، ط1997،1م،ص68.

7: محمد السيد حلاوة :الأدب القصصي للطفل) منظور اجتماعي ونفسي(، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط2003،2م، ص18.

8: نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام، ص.145

9: عبد الله الركيبي :تطو رّ النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009 م، ص192.

10: محمد يوسف نجم:فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5 ،1966م،ص10/09.

11: عبد الله الركيبي :تطو رّ النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2009 م، ص192 .

12: العيد جلولي :النّص الأدبي للأطفال في الجزائر، مرجع سابق، ص61 /62.

13: هاجر ظريف،الشخصية في أدب الطفولة بالجزائر أحمد خياط–أنموذجا–مذكرة ماجستير،مرجع سابق،ص45

14: منصور بوراس :البناء الروائي في أعمال محمد العالي عرعار الروائية /الطموح، البحث عن الوجه الآخر، زمن القلب /مقاربة بنيوية،رسالة ماجستير، إشراف :محمد العيد تاورتة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2009 :م 2010 /م، ص29 .

15: عبد الملك مرتاض :تحليل الخطاب السردي – معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدينة –ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 . م، ص127 .

16:أحمد دليل،الطائر الزجاجي، دار الأوطان للثقفة والإبداع، الجزائر،2016، ص5.